غَدِيٌ

تأليف

رَنَا الشَّامِيُّ

رسوم: فؤاد الحسيني

الدَّارُ النَّمُوذَجِيَّةُ لِلطِّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ

صَيْدا - لُبْنان

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/8355
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 00961 7 729261
صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا - جزين
00961 7 230841 - 07 230195
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى
2019م - 1440هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نشر، أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، أو بأي طريقة، سواء كانت ألكترونية، أو بالتصوير، أو التسجيل، أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدمًا.

E. Mail: alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.alassrya.com

المُقَدّمَة

في قسوةِ الحياةِ على الصّغارِ إيلامٌ، يقهرُ ويظلمُ ويُشتّتُ، لكنْ في بعضِ الأحيانِ يصنعُ منهمْ رجالاً يعلّمون الحياةَ أنّ مرارتَها قد غذّت مناعتهم، وبنتْ صلابتَهم.

لا بديلَ عنِ احتضانِ الأمّ، ولا حنانَ كحنانِها. لكنْ عندما تُفقَدُ ينسلخُ منْ قلبِ ابنِها قلبٌ آخرُ، يغيبُ ساعاتٍ فيتركُ أثراً موجِعاً لجُرْحٍ عميقٍ جدًّا، ثمَّ يعودُ إلى مكانِهِ مُداوِياً مطمئِنًّا ليذكّرَهُ بأنَّ أمّه، وإنْ غابتْ عنْ عينِهِ، ستبقى محفورةً في قلبِهِ، ولا يحقّ لأحدٍ أن يحتلَّ هذا المكانَ المخصَّصَ لها فقط.

لكنّ التّعاطيَ معَ الأمّ البديلةِ أمرٌ لا بدَّ منهُ، هكذا يشاءُ القدرُ أحيانًا، والحياةُ استمرارٌ. إنّما البطلُ مَنْ صبرَ صغيرًا، ونضجَ قبلَ أوانِهِ، ليُزهرَ في مَنْ حولهُ دونَ أنْ ينتظرَ دفءَ شمسهم، أو ريّ مياهِهم.

رَنَا الشّامِيّ

أَمَنْبوذٌ أَنا؟ لا لَسْتُ كَذَلِكَ، وَلَنْ أَكونَ مُفْتَرِيًا في الحُكْمِ عَلى أَحَدٍ. أَمُشَرَّدٌ أَنا؟ بِالطَّبْعِ لا، فَأَنا أَسْكُنُ بَيْتَ أَبي مُكَرَّمًا. رُبَّما أَنا نَكِرَةٌ لَكِنْ لَمْ يُنكِرْها أَحَدٌ، مُهَمَّشٌ لَمْ يُعِرْهُ أَحَدٌ اهتِمامًا في المَنْزِلِ. أَراها تُمَيِّزُهُمْ وَتُفَضِّلُهُمْ عَلَيَّ، ولا أَفْهَمُ سَبَبًا لِتَصَرُّفِها هَذا، فَأَنا صَغيرٌ مِثْلَهُمْ، أَعْرِفُ أَنَّها لَيْسَتْ أُمّي، وَأَنَّ أُمّي تُوُفِّيَتْ لَحْظَةَ وَلَدَتْني. نَعَمْ لَقَدْ حَضَنَتْني زَوْجَةُ أَبي بَيْنَ صِغارِها، وَرَعَتْني، لَكِنَّها ظَلَّتْ تُفَرِّقُ في المُعامَلَةِ بَيْني وَبَيْنَهُمْ. هِيَ تَظُنُّ أَنَّني لا أُلاحِظُ أَوْ لا أَشْعُرُ بِذَلِكَ، لَكِنَّني رُغْمَ صِغَري أَمْتَلِكُ مَشَاعِرَ صَافِيَةً لا تَعْرِفُ الكَذِبَ ولا الغِشَّ ولا التَّظاهُرَ. أَسْتَغْرِبُ حَنانَها الدَّفّاقَ عَلَيْهِمْ وَشُحَّهُ عَلَيَّ، تَطْبَعُ قُبُلاتٍ مِنْ قَلْبِها عَلى وَجْناتِهِمْ، وَتُعانِقُهُمْ بِيَدَيْنِ دافِئَتَيْنِ، وَتُسْمِعُهُمْ أَعْذَبَ الكَلامِ، أَمّا أَنا فَلا أُنْكِرُ أَنَّها ما قَسَتْ عَلَيَّ يَوْمًا، وَلَكِنْ إِنْ حَصَلَتُ عَلى قُبْلَةٍ مِنْهَا فَعَابِرَةٌ، أَوْ مُعَانَقَةٍ فَبارِدَةٌ، أَوْ كَلِمَةٍ فَعَادِيَّةٌ.

حَاوَلْتُ كَثيرًا اسْتِدْرارَ عَطْفِها بالمُبادَرَةِ إلى تَقْبيلِها وَضَمِّها والتَّغَزُّلِ بِجَمالِها، كَمَا اتَّبَعْتُ سِياسَةً عَلَّمَتْني إيّاها قَسْوَةُ الأَيَّامِ، فَصِرْتُ أُريها أَنَّني أُحِبُّ أَوْلادَها وأُلاعِبُهُمْ وَأَخْدُمُهُمْ، فَهُمْ إِخْوَتي، لَكِنَّ التَّمْييزَ ظَلَّ واضِحًا لا مَفَرَّ مِنْهُ.

فَعِنْدَما يَحينُ وَقْتُ الاسْتِحْمَامِ، فَلِإِخْوَتي الأَوْلَوِيَّةُ، يَنْعَمونَ بالمِياهِ السَّاخِنَةِ، أَمَّا أَنَا فَلي ما اسْتَيْسَرَ بَعْدَهُمْ مِنَ الماءِ الفاتِرِ الّذي سُرْعانَ ما يَبْرُدُ فَيَرْتَجِفُ تَحْتَهُ جَسَدي الصَّغيرُ، فَأُسارِعُ إلى غَسْلِ عَيْنَيَّ مِنَ الصَّابونِ الّذي يَكْويهما، والّذي لَمَّا يَزَلْ يُغَطّي رَأْسي وَجِسْمي، أَتَلَمَّسُ طَريقي وَحيدًا ضائِعًا، فلا أَجِدُ يَدَيْنِ تُحيطاني بِمِنْشَفَةٍ كَبيرةٍ تَلُفُّ جَسَدي الرَّاعِشَ كَما يَنْعَمونَ هُمْ حينَ تَلُفُّهُمْ يَداها الحَنونانِ. وما يَزيدُ قَهْري أَنَّني أَجِدُ إِلى طَرَفِ المَغْسَلَةِ أَلْعابًا مُبَلَّلَةً كانَتْ قَدِ اسْتَحَمَّتْ مَعَ إِخْوَتي مُتَنَعِّمَةً بِالمَاءِ السَّاخِنِ أَكْثَرَ مِنّي.

وَأَثْناءَ تَناوُلِ الطَّعام، أَنْتَظِرُ دَوْرِيَ الأَخيرَ بَعْدَهُمْ دائِمًا في السَّكْبِ. ثُمَّ تَجْلِسُ بِمُحَاذاتِهِمْ تُطْعِمُهُمْ بِيَدَيْها راوِيَةً أَجْمَلَ القِصَصِ، مُمَثِّلَةً مُخْتَلِفَ الأَصْواتِ، مُتَنَقِّلَةً بِعَيْنَيْها مِنْ واحِدٍ إلى آخَرَ، لَكِنَّها ما نَظَرَتْ يَوْمًا في عَيْنَيَّ، وَكَأَنَّ القِصَّةَ لَهُمْ وَحْدَهُمْ وَأَنَا أَسْتَرِقُ السَّمْعَ، أَوْ كَأَنَّ عَيْنَيَّ اليتيمَتَيْنِ مُكْتَفِيَتانِ مِن الاهْتِمامِ. آهِ لَوْ تَعْلَمُ أَنَّ نَظْرَةً واحِدَةً مِنْها عابِرَةً في عَيْنَيَّ تَكْفيني وتُطَمْئِنُني، لَكِنْ لَنْ أَسْتَجْدِيَ ذَلِكَ مِنْها إِطْلاقًا. أَسْعدُ بِقِصَصِها، وأُسافرُ بِخيالي معها، لكنَّني أعيشُ أحداثَها مُخْفِيًا ردَّاتِ فِعْلي العفَويَّةَ الطُّفوليَّةَ، فإنْ ضحِكْتُ لِحدَثٍ تَجاهَلتْني، وإنْ ضحِكوا تَراها أعادتِ الخَبَرَ لهم مرّات ومرّات، وعَلَتْ بِصوْتها وأَضافتْ حركاتٍ وحركات. وحينَ يُنهي كلٌّ مِنْهم طعامَهُ يُنتَقى لَهُ مِنْ حَبَّاتِ الفاكِهة أَحسنُها، ويُتركُ لي ما كانَ فجًّا أو شارَفَ عَلى الاهْتِراء.

ويبْقى الكلامُ على المرضِ، فإذا أُصيبَ بهِ أحدُنا انْتقلتِ العدوى تلقائيًّا إلى الكُلِّ. مرَضُنا واحدٌ، لكنَّ العنايَةَ بِنَا مُخْتَلِفَةٌ. مَرَضُهُمْ مُخيفٌ يبْعَثُ على القَلَقِ وانشِغالِ البالِ، يَدْعو إلى التَّفقُّدِ والسُّؤالِ كلَّ لحظةٍ، يسْتوجِبُ أحيانًا ذرفَ الدَّمْعِ عَطفًا وحَنانًا، والإكثارَ من الدُّعاءِ. أمَّا مَرَضي فطبيعيٌّ، عابرٌ، لا يتطلَّبُ اهتمامًا ولا عِنايةً خاصَّةً، فالدَّواءُ كفيلٌ بالشِّفاءِ. تجُسُّ براحةِ كفِّها جبهاتِهِمُ الحارَّةَ، تتلمَّسُ لتطمئنَّ، فتُداوي وتُطبِّبُ وتحتضِنُ المريضَ حتّى يغفوَ فوق ذراعيها على أعذَب صوتٍ ملائكيٍّ، هو الشِّفاءُ بِعينهِ. بينما تحتضنُني أنا جنباتُ كَنبةٍ لا تعرفُ الحُنُوَّ، أغفو وأفيقُ وأتقلَّبُ وأئنُّ فوقَ جمادٍ أصمَّ لا يسمعُ الشَّكوى، ولا يَبعَثُ على الشِّفاءِ.

وأخشى ما أخشاهُ هبوطَ اللَّيلِ، حينَما تُنوِّمُ صِغارَها قُربَها بحُجَّةِ مرضِهِمْ، فأبقى خائفًا وحيدًا في سَريري،

تُنسيني مرضي وَحدتي في غُرفةِ نومي؛ الَّتي يزدادُ ظلامُها في عينيَّ، وتَتَلاحقُ خيالاتُها المُرعبَةُ في قلبيَ الصَّغير. أَهُمُّ مرَّاتٍ بالانضمامِ إليهم، فأنا أحسدُهُم على ما ينعَمونَ بهِ، لكنَّني أتراجعُ لئلّا أُهانَ إن لم أجِد لي مكانًا بينهُم.

هي الأيَّام علَّمتني الصَّبرَ والتَّضحيةَ وانتظارَ الدَّور الأخير في كلّ أمرٍ. إلّا أنَّني لم أفهم يومًا طبيعةَ هذه المرأةِ المُتناقضةَ! فكيف لِأمٍّ حنونٍ مُضحِّيةٍ أن تعيش دور اللَّامُبالية في الوقتِ نفسهِ؟! أنا متيقّن أنَّها تحبُّهُم ولا تكرَهُني، تُطعِمُهُم ولا تحرمُني، لكنَّها ما ساوتْني بهم يومًا. تُرى هل ما أفتقدُهُ فيها هو حنان الأمّ؟ أهذا الَّذي أُلاحظُهُ وأتحرَّقُ شوقًا للحُصولِ على مِثلِهِ هو عَطفُ الأُمِّ؟ فَهِمْتُ الآن جيِّدًا أنَّ الأمَّ أطفالُها دُنياها، وكلُّ دُنيا غيرَهُم ليست دُنياها.

❊❊❊

هكذا ظلَّت الأيَّامُ تَتعاقَبُ رتيبةً، تُنغِّصُ عيشَتي المُقارَنَةُ في المُعاملةِ التي أُقيمُها بَيني وبَيْنَ إخوَتي. أقوى حِينًا عليها فَأتجاهَلُها وأعيشُ، وتَقوَى هي عَليَّ أحيانًا فأتأكَّدُ وأشقى.

استدْعاني أبي يومًا وانْزَوى بي في غُرفَتِهِ بَعيدًا عن أنظارِ وأسْمَاعِ مَن في البيتِ، كان حَنونًا عَطوفًا لكن مُنشغِلاً دائمًا. أجلَسني قُبالَتَهُ، رَبّتَ على كَتفي بِقوّة وقالَ: "اِسمع غَدي، أنتَ اليومَ في السَّادِسةَ عَشْرةَ مِن عُمُرِكَ، شابٌّ يُعتَمدُ عليهِ، انتَظرْتُ طويلاً حتى أَجِدَكَ سَنَدًا لي في البَيْتِ ورَجُلهُ الثَّاني. أُريدُك قَويًّا في نَفسِكَ، مسؤولاً في تَصَرُّفاتِكَ. سَأُسافِرُ لأُسبوعٍ فقَط موكِلاً إِليكَ أَمْرَ البَيتِ فلا تَخذُلْني، وَكُنْ ظِلِّي في غِيابي، ويَدي اليُمْنى في حُضوري"، وَقامَ.

كانَت كَلِماتُهُ قليلةً بِحُروفِها عَظيمَةً بِتَأثيرِها. جَعَلَتْني أَسْتَسْخِفُ عَواطِفَ رَخْوةً رَجَوْتُها مِن امْرأَةٍ، وَغَيْرةً تَافِهَةً عِشْتُها مَعَ أَطفالٍ. كَلِماتٌ جَعلَتني أَعي تَمامًا أَنَّني بِحاجَةٍ

مَاسَّةٍ في هذِهِ السِّنِّ إلى رُجولَةٍ أَستَقيها من أُبُوَّةٍ لا مِن أُمومَةٍ، رُجولَةٍ ذُقْتُ بَعضًا مِن قَطَراتِها في كَلامِهِ الرائِعِ، فَغَيَّرَتْ نَظْرَتي إلى نَفْسي وإلى إِخْوتي وَأُمِّهِمْ وإلى الحياةِ.

قُبيْلَ وداعِهِ في المطارِ، ضَمَّني ضَمَّةً رُجولِيَّةً، وَأَسَرَّ في أُذُني مُذَكِّرًا بِوصيَّتِهِ، وَوَدَّعَتْ عَيناهُ عَينَيَّ بِنظْرةٍ تَرجَمَتْ لي حَنانَ الدُّنيا كُلَّهُ، وانصَرَفَ.

وفي أُسبوعِ سَفَرِهِ كَبرتُ سنينًا. كُنتُ أُرافِقُ إخوَتي صَباحًا إلى مَدرَسَتِنا كَما لَم أُرافِقْهُمْ من قَبْلُ. صِرتُ أوقِظُهُمْ، وَأَهْتَمُّ بِتَجْهيزِهِم، وَأُسَيِّرُهُم أمامي واثِقَ الخُطوَةِ، شَاعِرًا بِالمَسؤوليَّةِ الموكَلَةِ إِليَّ عِبئًا ثَقيلاً لَكِنْ حُلْوًا. عَيناي تَتَفَقَّدانِ خُطُواتِهِم ويَدايَ تَشُدَّانِ على أَيديهِم. وَبَعدَ ظُهرِ أَحَدِ الأيَّام، وأثناء عَودَتِنا من المَدرسةِ، دَخَلَتْ أُختي الصَّغيرةُ البيتَ باكِيةً، تَشكو إلى أُمِّها قَسوَتي في التَّعَامُلِ مَعَها عَلى الطَّريقِ، فَما كانَ مِن زَوجَةِ أبي إلّا أَن نَهَرَتني

صَارِخَةً: "أَتستقوي عَلى طِفْلَةٍ؟ أهَكَذا تَفهَمُ الرُّجولَةَ؟ تَصَرُّفاتُكَ في غيابِ والِدِكَ لَم تَعُد تُطاقُ، قِف عِندَ حَدِّكَ، وَاهتَمَّ فقط بِما يَعْنيكَ". وَبَّخَتْني وهِيَ لا تَعلَمُ أَنَّني أَنقَذْتُ طِفلَتَها مِن صَدْمَةِ سَيَّارةٍ حين أَفْلَتَتْ يَدي.

دَخَلْتُ غُرفَتي مُجْهِشًا بِالبُكاءِ، فَقَدْ هَدَمَتْ بِكَلِماتِها كُلَّ أساسٍ مَتينٍ بَناهُ أبي داخلي. كَلِماتُهُ حَلَّقَت بي في فضاءِ الأَنْجُمِ، وَأَنضجَتْني وَزَرَعَت في نَفْسيَ الأَمَلَ، بِعكسِ كَلِماتِها الَّتي حَطَّمَتْني وَهَوَتْ بي إلى أَسفَلِ الدَّرَكاتِ، تاركَةً إِثْرَها شابًّا مُعتكِفًا في غُرْفَتِهِ لِساعاتٍ، لَمْ يَسْأَلْ عَنهُ أَحَدٌ كَالعادةِ. سَوَّلَتْ لي نَفْسي مَرَّاتٍ عِدَّةً أن أواجِهَها وأُفصِحَ لَها عَمّا يَعتَريني تِجاهَها مِن مَشاعِرَ قَديمَةٍ، وَأَنْ أبوحَ لها بِكَلامٍ قاسٍ يُعيد إلَيْها رُشْدَها، ويُلفِتُ انتِباهَها بِأَنَّها لَيْسَتْ أُمّي، وَلَيْسَ لها الحقُّ في تَوْبيخي، لَكنَّني تذكَّرْتُ عَوْدَةَ أبي في اليَومِ التَّالي، ما أَسْكَتَني وأَقنَعَني بِأَنَّ الشَّكوى لَهُ أكثر

نَفْعًا مِن مُعاتَبَتِها، فَهُوَ حَتْمًا سَيُدافِعُ عَنّي حينَ سَيَعلَمُ أَنَّني ما أخطَأتُ، بَل كُنْتُ أُنَفِّذُ تَمامًا ما أَوصاني بِهِ.

وَحينَ حَلَّ اللَّيلُ، وَجَدْتُها واقِفَةً على بابِ غُرْفَتي تَسْتَأذِنُ بالدُّخولِ. ما فَهمتُ لَحظَتَها ما يَجْري، فَأنا غَيْرُ مُعتادٍ مِنْها على اهتِمامٍ خاصٍّ. سَمَحَتْ لِنَفسِها بالجُلوسِ قُربي، وقالَت:"أنا آسِفَةٌ غَدي، لَقَدْ أَخبَرَني أخوكَ ما جَرى. وَقَبَّلَتْني وَأَصَرَّت على إِخْراجي مِن غُرْفَتي لِتَناول طَعَامِ العَشاءِ مَعَهُم. ومِن دون تَفكيرٍ وبِكُلِّ عَفَويَّةٍ وَجَدتُني أضُمُّها بِشِدَّة مُستَمِدًّا مِنْها كُلَّ حَنانٍ افْتَقَدْتُهُ، وَمُفرِغًا كُلَّ حُبٍّ أَكنُّهُ لها. وفي هَذِهِ اللَّلحْظَةِ الرَّائِعَةِ أَيقَظَني جَرَسُ هاتِفي مُعلِنًا مَوعِدَ استيقاظي، فَعَرَفتُ أَنَّهُ كانَ مُجرَّدَ حُلُمٍ هانِئٍ تَمَنَّيتُهُ في نَفسي، وَحَزِنتُ على زَيْفِهِ.

❊❊❊

عادَ أبي، فَتَناسَيْتُ الشَّكوى، وَصِرتُ أُرافقُهُ وأُجالِسُهُ وأُحاورُهُ طامِحًا لا باكْتِفاءٍ عاطفيٍّ كَما مِن قَبلُ، بَل بِدَعمٍ معنويٍّ يُحيلُني شابًّا يُشارُ إليهِ بِالبَنانِ. وَفي هَذا الوَقتِ رَجَوْتُهُ أَن يَصْطَحِبَني مَعَهُ مَرَّةً بَعدَ مَرَّةٍ إلى مِرآبِهِ الخاصِّ بِتَصليحِ السّيَّاراتِ، لأَخوضَ تَجرِبَةَ العَمَلِ، وَأكتَشِفَ خَبَاياهُ، خاصّةً أنَّ العُطلَةَ الصَّيفِيَّةَ على الأبوابِ، وَهيَ خَيرُ وقتٍ لِمِثلِ هذه التَّجاربِ.

مرَّت أيَّامٌ قَليلة عرَّفَني فيها سَريعًا بَعْضَ أَدواتِهِ، وصارَ يوكِلُ إليَّ مَهامًّا بَسيطَةً تَتَناسبُ وسِنّي. عُدتُ يَومًا مَعَهُ إلى البيتِ مُسوَدَّ الوَجْهِ، قذِرَ الثِّيابِ، مَجروحَ اليَدينِ، مَحْنيَّ الظَّهرِ، مُعتَرِفًا لَهُ باستِسلامي واستِقالَتي مِن هَذهِ الوَظيفةِ المُضنِيَةِ، الَّتي كانَت أَكبَرَ بُرهانٍ على مَدى تَعَبِهِ مِن أَجلِنا. دَخَلَ غُرفَتَهُ وناداني، أَخْرَجَ مِن جَيْبِهِ مالاً وَنَقَدَني أَجْرَ ثَلاثَةِ أَسابيعَ أَمضيْتُها في خِدْمَتِهِ. تَمَنَّعْتُ في البِدايَةِ، وحينَ أَصَرَّ

شَكَرْتُهُ كثيرًا. لَقَد أَحْسَستُ لِلمَرَّةِ الأولى بِفَرَحِ الأَجيرِ حينَ تَشْبَعُ مِحْفَظَتُهُ آخِرَ الشَّهْرِ.

- "أبي، أُريدُ أَن أكونَ صَيْدَلانِيًّا. وَقَدِ اقْتَرَبَ مَوْعِدُ تَقديمِ الطَّلَباتِ الجامِعِيَّةِ". في هَذِهِ اللَّحظةِ انضَمَّتْ إلينا زَوْجَتُهُ تُشارِكُنا حَديثَ المُستَقبَل:"صَيدَلانيًّا إذَن". وصارَت تُغدِقُ عَلَيَّ عِباراتٍ تَشْجِيعيَّةً، وتُفهِمُني أَنَّها تَرَى فِيَّ كُلَّ البَراعةِ والتَّفَوُّقِ والجِدِّيَّةِ بِعَكْسِ إِخوَتي الَّذينَ أرهَقوها بِكَسَلِهِم، وَزَرَعوا في نَفْسِها اليَأسَ مِن نَجَاحِهِم. بَقِيَتْ هِيَ تُكْمِلُ حَديثَها أَمَّا أَنا فَقَد غِبْتُ عَن وجودي، أَتُراني في حُلُمٍ خَادِعٍ كَالسَّابِقِ؟ هِيَ مَن تَخُصُّني بِهَذا التَّشجيعِ؟! يا اللهُ! كَم وَجَدْتُ في قَولِها تَسْكينًا لِحَسَراتٍ مُزمِنةٍ في نَفسي، ومَحْوًا لِغِلٍّ دَفينٍ عَمُرَ بِهِ قَلْبي. بَدَتْ لَحْظَتَها طاهِرَةً، مُتَرَفِّعَةً عَنِ العُيوبِ. أَمْسَكَتْ بِكِلْتا يَديَّ وقَالَتْ بِصَوتٍ كَالوَشْوَشَاتِ:" أَتَعْلَمُ يا غَدي أَنِّي اِفتَقَدْتُكَ

مُذْ مِلْتَ إلى والِدِكَ واسْتَغْنيتَ عَنّي؟ بِتُّ أغارُ مِنهُ وَأحسِدُهُ على لُجوئِكَ الدَّائِمِ إليهِ، هَنيئًا لَهُ بِكَ شَابًّا وَسيمًا خَلوقًا".

لَقَد نَسَجَتْ بَينَنا بِوَشْوَشَتِهَا هَذِه عَاطِفَةً جَديدةً حُلوةً، أَخشى عَلَيْها مِنَ الضَّيَاعِ، عاطِفَةً جَعَلَتْني أُعَاتِبُ نَفْسي مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ على اتِّهامِها بِتَمْييزِها. إنَّها تُحِبُّني فِعلاً، لَقَد تَأكَّدْتُ اليَومَ.

ما غَفَوْتُ لَيْلَتَها بِسُهولَةٍ، ذاكِرَتي تَسْتَعيدُ كَلامَها، وَنَفسي تَتَحَمَّسُ لِتَشْجيعِها، وَقَلْبي يُرَفْرِفُ لِعَطْفِها، وَعَقْلي يُقَلِّبُ أَفْكارًا في كَيْفيَّةِ إسْعادِها. حَتَّى رَسا أخيرًا على فِكرةِ إهدائِها باقَةَ وَردٍ ثَمَنُها مُؤمَّنٌ في جَيْبي. وَأحلى ما في الفِكْرَة أَنَّ الإهداءَ هذا في غَيرِ مُناسَبَةٍ، هو فقط تَعبيرٌ عَن حُبّي لها.

عُدتُ بِالباقةِ وفي قَلبي رَبيعٌ زاهرٌ كَأَزهارِها، وَضَعتُها بينَ يَديْها وقَد غَابت حُروفُ الأبجديَّة كُلُّها عن لِساني، أو كَأَنَّها ما عادَت تَعرِفُ التَّجمُّعَ في كَلِماتٍ مُفيدَةٍ،

فَرَسَمَ وَجهُها عَشَراتِ التَّساؤلاتِ، وبَرَقَت عَيناها فَرَحًا، وقَالتْ:" أَهِيَ لي؟" فَرَدَدْتُ:"لكِ وَحدَكِ".

❊❊❊

دَخَلتُ الجامِعَةَ وَبَرَعتُ في ما اخترتُهُ، بِعَكسِ أَخَوَيَّ اللَّذَيْنِ ما أَحَبّا العِلمَ، وَتَرَكاهُ مُتَوَجِّهيْنِ إلى العَمَلِ في مِرآبِ أَبيهِما، وبَعدَ مُدَّةٍ قَصيرةٍ اختبَرا فيها التَّعَبَ المُنْهِكَ، حارا في أَمْرِهِما، ودَخَلا دَوَّامَةَ الفَشَلِ، وَغَرِقا في مُستَنقَعِ الضَّياعِ. وهذا ما نَسَجَ عَلاقَةً رائِعَةً بَيْني وبَيْنَ أَبي الَّذي رَأى فيَّ رَجُلاً طَموحًا يُتَّكَلُ عَلَيْهِ. حتى زوجَتُهُ قالَت لي يَومًا: " أَتَعلمُ يا غدي، بِأَنَّ حَنانَ الأُمِّ الفائِضَ قد يَنسِفُ تَربيَةَ الأَبْناءِ ويودي بِأخلاقِهِم ويجعلُهُم اتِّكاليِّينَ؟ هذا ما لَمَستُهُ في أبنائي وَلَم أَجِدْهُ فيكَ. نَمَوْتَ رجلاً بينهم، كَبُرتَ بِسُرعة وظلّوا هم صغارًا، أرى فيكَ أَمَلاً أفتقِدُهُ فيهِم. لَقَد دَلَّلتُهُم فَخَسِرتُهُم، وَتَجاهَلتُكَ فربحتُكَ".

جَمَعْتُ إخوَتي يَومًا، وَرُحتُ أُرشِدُهُم إلى ما فيهِ مَصْلَحَتُهُم، وتَكَفَّلتُ بِمساعَدَتِهِمْ في إكمالِ دِراستِهِم، وَحَدَّثتُهُم طَويلاً عَنِ الجامِعَةِ، فَمِنهُم مَن اهتَدى ومِنهُم مَن أَضَلَّهُ جَهلُهُ.

كانَ أخي طارقٌ، وَهوَ كَبيرُهُم، عَنيدًا مُتَمَرِّدًا، أَتعَبَ والِدَيْهِ وأَبْدى غَيْرَةً واضِحَةً مِن مُعامَلَتِهِما لي. حَاوَلْتُ احتِواءَهُ كَثيرًا لَكنَّهُ مَا لانَ قَيْدَ أُنمُلةٍ. كَان الوحيدَ الَّذي يَعْرِفُ حَقيقةَ يُتْمي. فَفيما كُنّا نَجْلسُ ذاتَ سَهرةٍ نُشاهِدُ التِّلفازَ كُلُّنا، إذ بِزَوجَةِ أبي تَشكو فَجأةً مِن أَلَمٍ في رأسِها رافَقَهُ ضَعْفٌ في النَّظَرِ، فَهُرِعتُ وَرَفَعْتُ قَدَمَيها وَجَعَلتُها تَتَمَدَّدُ على الأريكَةِ الَّتي كَانت تَجلِسُ عَلَيها، وَأَسْرَعْتُ مُتَناوِلًا آلَةَ فَحص ضَغطِ الدَّم، الَّتي أشارَت أرْقامُها إلى ما لا يُطَمئِنُ، فَأَتَيتُها بَحَبَّةِ دَواءٍ تُعالِجُ المُشْكِلَةَ وَلَو مُؤقَّتًا، وفي هَذه اللَّحْظةِ تَدَخَّلَ طارقٌ مُمَانِعًا صَارِخًا:

"دَعْ أُمّي، أَتَعْتقِدُ نَفْسَكَ طَبيبًا؟! أنَا لا أَطْمَئِنُّ عَليها بَين يَديكَ، فَأنْتَ لَستَ ابنَها".

سادَ الصَّمْتُ الغُرفَةَ، وانصَبَّتِ النَّظَرَاتُ عليَّ كَأَنَّها سِهامُ اتِّهامٍ مُسنَّنَةٌ. انحَبَسَتِ الشَّهْقَاتُ في صُدورِ الجَميعِ، وَوَقَفَ

أخي الأوسَطُ كَريمٌ وأُختي الصُّغرَى لارا مُندَهِشيْنِ، تَطلُبُ عُيونُهُما عَشَراتِ الاستِفساراتِ مِن أبيهِما، فَأكمَلَ طارِقٌ بِكُلِّ وقاحَةٍ: "غدي يَتيمٌ، وَأُمُّنا لَيسَت أُمَّهُ". أَخرَسَهُ أَبي بِصَرخَةٍ مَبحوحَةٍ، مَا كانت كافِيةً لإيقافِ دُموعي المُنهَمِرةِ، لَقد مسَّ أَرَقَّ مَشاعِري وأَكثَرَها حساسِيَّةً. وَضَعْتُ حَبَّةَ الدَّوَاءِ في يَدِ أبي وغَادَرتُ إلى غُرْفَتي، أحْضُنُ صورَةَ أُمِّي وأشكو إليها قهرًا يعذبني في غيابها:

"أُمِّي، أَينَ أنتِ؟ أَهَانَ عَليكِ فِراقي؟! كَبُرتُ وما زِلتُ بحاجَةٍ إليكِ، كُنتُ أَظُنُّ أَنَّني مُكتَفٍ مِن وجودِ أبي قُربي ومِن عاطِفَةِ أُبُوَّتِهِ، لَكِنَّني عِندَ كُلِّ مُفتَرَقٍ مِن حَياتي أَجِدُني ضَعيفًا ضَعفَ طِفلٍ عاجِزٍ يَحتاجُ إلى أُمٍّ تُدَبِّرُ أُمُورَهُ كُلَّها. إنَّه ذَنْبي، سامحيني، لقد مَنَحْتِني الحَيَاةَ ومَنَحْتُكِ المَوْتَ".

في هَذا الوَقتِ كُنْتُ أَسمَعُ صُراخًا يَدُلُّ على تَأنيبِ أبي لِطارِقٍ، وَرَدًّا مِن هذا الأخيرِ أقسى من الحَجَرِ. فَجأَةً،

دَخَلَتْ لارا غُرفَتي وَقالَت: "غَدي، لا تَحزَن فَسأظَلُّ أُحِبُّكَ". وَتَناوَلتْ مِنديلاً وَراحَتْ تَمسَحُ دَمعي، وَأضافَت: "أُمّي المَريضَةُ تقولُ إنَّها بحاجَةٍ إليك، تعال انظُر ما بِها، لقد غادرَ طارِقٌ البيتَ بعدَ أن تشاجرَ مع أبيهِ".

رَكَعْتُ أمامها، وَهِيَ لا تَزالُ مُستَلقِيةً، فَقَرَأَتْ في احمِرارِ عَينيَّ استِرحامًا واستِعطافًا، فَضَمَّتني ضَمَّةَ شَفَقَةٍ واعتِذارٍ نيابةً عن ابنِها المُخطِئِ. وقالت:" لا أَثِقُ إلَّا بِكَ، أنا الآنَ عَلى خَيرِ ما يُرامُ".

بَعدَ هذِهِ الحادِثَةِ وغَيرِها مِنَ المُشاجَراتِ التَّافِهَةِ أَصَرَّ طارِقٌ عَلى السَّفَرِ، بِحُجَّةِ أَنَّهُ غَيرُ قادِرٍ على تَحَمُّلِ العيشَةِ في البَيْتِ الَّذي ما تَفَهَّمَهُ مُراهِقًا، ولا الوَطَنِ الَّذي يَحُدُّ مِن طُموحاتِهِ، فَسافَرَ إلى الخَليجِ حَيثُ نَزَلَ عِندَ عَمّي الَّذي يَعمَلُ هُناك مُنذُ عَشرَةِ أعوامٍ، وَيَقطُنُ مَعَ عائِلَتِهِ.

❊❊❊

تَأَثَّرَ أَبي كَثيرًا لِغِيابِهِ، بَعدَ أن فَعَلَ المُستَحيلَ لإقناعِهِ بِالبَقَاءِ. فَخَافَ على كَريمٍ أن يَحذوَ حَذوَ أخيهِ الأكبرِ، فَطَلَبَ منِّي أن أتَقرَّبَ إليهِ وأُصاحِبَهُ، معَ عِلمِهِ بأنّ كريمًا ذو طباع ليّنة، وكثيرًا ما انتَقَدَ طارِقًا، فَلا مَجالَ لِأَن يُقلِّدَهُ.

تَأَخَّرَ أبي يَومًا في عَمَلِهِ، لَكِنَّ ذلك ما شَغَلَ بَالَنا لِأَنَّنا نَعرِفُ تَمامًا أنَّ عَمَلَهُ لا يَحُدُّهُ دوامٌ ثَابِتٌ. اتَّصلَ بي قائِلاً: "وافِني في مَدخَلِ البِنايَةِ فَأنا بِانتِظارِكَ في الأَسفَلِ". نَزَلتُ دَرَجاتِ السُّلَّمِ راكِضًا ولم أنتَظِر وُصولَ المِصعَدِ، يَنتابُني شُعورٌ بِأَنَّهُ لَيسَ بِخَيرٍ، كما حَدَّثَتني نَفسي في هَذا الوقتِ القَصيرِ بِكُلِّ خَبَرٍ سَيِّئٍ. وَصَلتُ، فَوَجَدتُهُ بَاسِمًا يَرفَعُ يَدَهُ وَيَهُزُّ بِمِفتاحٍ وَيَقولُ: "لَكَ هَذا لِهَذِهِ"، ويُشيرُ إلى دَرَّاجةٍ نَاريَّةٍ رائِعَةٍ، وَيَضُمُّني وَيُضيفُ:"كُلُّ عامٍ وأَنتَ بِخَيرٍ" لَن تُضطَرَّ إلى الذَّهابِ بَعدَ اليومِ إلى جَامِعَتِكَ سَيرًا أو بِسَيَّاراتِ الأُجرَةِ". غِبتُ عَن وجودي في لَحْظَةٍ اطمَأَنَّتْ فيها نَفسي

أَنَّهُ بِخَيرٍ، وَلَم تُصَدِّق عَيناي فيها ما تَرَيانِهِ. قَالَ: "أَصلَحتُها بِيَديَّ فَأَعْجَبَتني فَاشتَرَيتُها لكَ، إِنَّكَ تَستَحِقُّ أَكثَرَ مِن ذلِكَ".

وَصَعِدَ إلى البَيتِ وتَرَكَني بِرِفقَتِها. تَفَحَّصتُها بِكُلِّ تَفَاصيلِها، وعِشتُ فَوقَها حُلُم القِيادَةِ الَّذي يُراوِدُ كُلَّ شابٍّ، وَلَو أُتيحَ لي لأَمضَيتُ اللَّيلَةَ نائِمًا بِقُربِها.

خِفتُ على كَريمٍ، وصِرتُ أَتَخيَّلُ ما يَختَلِجُ في نَفْسِهِ مِنْ مَشاعِرِ الغَيرَةِ، وَهوَ أيضًا شابٌّ يتمنَّى لِنَفسِهِ تَحَقُّقَ هذا الحُلُمِ. صَعِدتُ البَيتَ شاكِرًا والِدي بكُلِّ عِباراتِ الشُّكرِ الَّتي تَخطُرُ بِبالٍ. وَأَمسَكتُ بيَدِ كَريمٍ واصطَحَبتُهُ إلى الدَّرَّاجَةِ الحُلُمِ، وَوَعَدتُهُ بِأَن تَكونَ أَوَّلُ رِحلَةٍ لي فيها بِرِفقَتِهِ، كَما وَعَدتُهُ بِتَعليمِهِ قِيادَتَها بِوجودي. طارَ مِن الفَرَحِ، وَهَنَّأني، وَأَحسَّ بي أخًا حَنونًا لا مُزاحِمًا ولا أنانيًّا. ونَمَتْ مِن يَومِها عَلاقة رائِعَةٌ بَيننا، مَا أراحَ أبي.

❊❊❊

كانَ الأسبوعُ كافيًا لِلتَّمَكُّن مِن قِيادَتِها. وَرُغمَ أَنَّها لَم تَكُن حَديثَةً إلَّا أَنَّني شَعَرْتُ عِندَ رُكوبِها بِغِبطَةٍ عارِمَةٍ، رُبَّما كانَ سببَها امتِلاكي لِدَرَّاجةٍ ناريَّةٍ وأنا في مِثلِ هذه السِّنِّ، أو رُبَّما هو حُلُمُ القِيادَةِ الَّذي يُراوِدُ كُلَّ شابٍّ. لَقَد عَرَفَ أبي حَقَّ المَعرِفَةِ كَيفَ يُسعِدُني بِهَدِيَّتِهِ.

لَم أنسَ وَعْدي لِكريم. رَكِبَ خَلفي مُحَلِّقًا بِيَدَيهِ اللَّتَينِ كَانَ مِنَ المَفروضِ عَلَيهما أن تَتَمَسَّكا بي، وراحَ يُغَنِّي طَرَبًا بِهَذِهِ اللَّحَظَاتِ الحالِمَةِ. فَجأَةً، أَوقَفتُ الدَّرَّاجَةَ وَتَرَجَّلتُ، وَأَومَأتُ إِليهِ أَن يَجلِسَ في مُقَدِّمَتِها.

ـ"أَلَيسَ هَذا ما وعَدتُكَ بِهِ؟ تَعَلَّمْ كَريمُ أن تَفِيَ بِوَعدِك دائِمًا، وَتَذَكَّرْ، مِن تَجرِبَتِكَ هَذِه، فَرحَةَ المَوعودِ بِتَحقيقِ أُمنِيَّتِهِ".

تَعِبَتِ الدَّرَّاجَةُ وَلَم نَتعَب، قادَها كَريمٌ أَكثَرَ الوَقتِ مُلتَزِمًا بِتَعليماتي. عَاشَ فَوقَها حُلُمَ كُلِّ شابٍّ في مِثلِ سِنِّهِ.

وأَخيرًا، أَحاطَني بِيَدَيهِ ـ اللَّتَينِ ما تَمَسَّكَتا بي طَوالَ الطَّريقِ ـ إحاطَةً تَنِمُّ عَنْ حُبٍّ وَشُكرٍ عَجِزَ عَنهُما لِسانُهُ.

تَذَكَّرْ يا كريمُ أنَّ أبي الَّذي أَهداني الدَّرَّاجَةَ هو نَفسُهُ أَبـوكَ، فإذا أَريتَهُ مِنكَ اجتِهَادًا وَنَجاحًا في دِراسَتِك، وَمَسؤولِيَّةً في تَصَرُّفاتِكَ، فَلَن يَبخَلَ عَلَيكَ بِكُلِّ تَأكيدٍ بِواحِدَةٍ. أَبونا أَهلَكَتهُ مِهنَتُهُ، الَّتي مَارَسها رُغمًا عَنهُ لأَنَّهُ لَم يَتَعَلَّم في صِغَرِهِ، وَقَد كَانَت ظُروفُهُ الصَّعبَةُ هي دَافِعَتُهُ إلى ذلكَ، لِذا صارَ يَسعى إلى تَعليمِنا بِكُلِّ ما يَملِكُ، يَخافُ عَلَينا حَتَّى لا نَشقى كَما يَشقى، ولكي نَرتاحَ في حَياتِنا وَلَو على حِسابِ راحَتِهِ. وأَكثَرُ ما يُحزِنُهُ أَنَّهُ يَعرِفُ قيمَةَ العِلمِ لَكِن لَم يَنَلهُ، في وَقتٍ لا نَعرِفُ قيمَتَهُ وهوَ مُتوافِرٌ لَنا.

❊❊❊

وفي سَنَةِ دِراسَتي الأَخيرةِ، بَدَأتُ أَتَمَرَّنُ على مُمارَسَةِ المِهنَةِ في صَيدَلِيَّةٍ مُهِمَّةٍ، كُنتُ آتيها فَورَ انتِهاءِ دَوامي الجامعيِّ، وَأبقَى فيها حَتَّى مُنتَصَفِ اللَّيْلِ. وَلَم أَكُن أَتَقاضى راتِبًا مُقابِلَ ذَلِكَ إذ إنَّ الخِبرَةَ الَّتي أَكتَسِبُها في هَذِه المَرحَلةِ هِيَ هَدَفي الأَسَاسُ. غِبْتُ عَنِ البَيتِ وَأَهلِهِ وأَخبارِهِم مُدَّةً طَويلَةً، فَافتَقَدَني الجَميعُ خَاصَّةً أُختي الصُّغرى لارا الَّتي اعتادَت سَمَاعَ صَوتي قَارِئًا لَها أَجْمَلَ القِصَصِ قَبلَ النَّومِ. فَتَأَخُّري في العَودَةِ إلى المَنزِلِ حَرَمَها تِلكَ اللَّذَةَ. أَتَتْني صَبَاحَ يَومِ الأَحَدِ تُوقِظُني بِحُجَّةِ اشتياقِها لي، وأنا في أَشَدِّ لَحَظَاتِ نُعاسي وانتِظاري يَومَ العطلة كي أَنَامَ وَأرتَاحَ. وَعَدتُها بِأَن يَكونَ اليومُ يَومًا مُمَيَّزًا نُمضيهِ مَعًا فَيُعَوِّضُها كُلَّ حِرمانٍ.

اصطَحَبْتُها إلى مَدينَةِ المَلاهي حَيثُ أَفرَغَت عَافيتَها كُلَّها هُناكَ. وَبَعدَها، أَخْبَرتُها أَنَّ مُفَاجأَةً رائِعَةً بِانتِظارِها،

فَكَّرَتْ وَاحتارَتْ وَجُنَّت تُرغِمُني عَلى الإِفصاحِ عَنْها، لَكِنَّني ظَلَلتُ صامِتًا أصطَحِبُها، لِأَزيدَ مِن تَشويقِها. قَصَدنا قاعَةً ضَخمَةً، وَقَفَتْ عَلى بَابِها تائِهَةً مُستَغرِبَةً، إِنَّها المَرَّةُ الأولى الَّتي تَقصِدُ فيها هذا المَكانَ، إِنَّهُ "مَعرِضُ الكِتابِ" حَيثُ سَتَختارُ قِصَصَها بِنَفسِها. وَغَرِقَتْ بَينَ قِصَصِ الدّورِ تَقرَأُ عَناوينَ، وَتَتَأَمَّلُ صُورًا، وَتُعَبِّئُ أكياسًا. غابَت عَن وجودِها ثَلاثَ ساعاتٍ، عَاشَت فيها حُلُم شِرَاءِ القِصَصِ المُمتِعَةِ. وَحينَ عُدْنا إلى البَيتِ دَخَلَتهُ راكِضَةً تُخبِرُ والِديها عن أجمَلِ يَومٍ في حَياتِها.

وحينَ حلَّ مَوعِدُ نَومِها، جَلستُ قُربَها عَلى السَّريرِ مُستَمِعًا هَذِهِ المَرَّة. احتارَت أيَّ قِصَّةٍ سَتَقرأُ، وحينَ قَرَّ رَأيُها على واحِدةٍ، لَم تَصمُد بَينَ يَدَيها خَمسَ دقائِقَ حَتَّى غَطَّت في نَومٍ عميقٍ. لَقَد كانَ يَومُها مُمتِعًا لَكِن شاقًّا.

شَكَرَني أبي لِأَنَّني حَلَلتُ مَكَانَهُ في إسعادِ كَريمٍ ولارا،

والتَّقَرُّبِ مِنهُما، وإفهَامِهِما بِطَريقَةٍ غَيرِ مُباشرةٍ ضَرورةَ تَحصيلِ العِلمِ، فَهوَ لَم يَعُد قادرًا على ذلِكَ، إذ إنَّ عَمَلَهُ الشَّاقَّ وسِنَّهُ المُتَقَدِّمَةَ يُجبِرانِهِ على الانكِفَاءِ والتَّقصيرِ.

❊❊❊

مَرَّت الأيامُ بَينَ حُلوَةٍ ومُرَّةٍ. كانَ أَحلاها تَخَرُّجي وَاستِلامي إدارَةَ صَيدَلِيَّةٍ، عَمِلتُ فيها بِكلِّ إخلاصٍ، حَيثُ عَايَنتُ زبائِنَ كَثيرينَ، أَكثَرُهُم يَرِقُّ لَهُمُ القَلبُ، يَلْجَأونَ إليَّ شاكينَ أوجاعَهُم، مُنتظِرينَ دَواءَ الخَلاصِ. وأَصعَبُها كانَ تَعرُّضَ أبي لِمَرَضٍ أَقعَدَهُ عَن العَمَلِ، وَجَعَلَهُ طَريحَ الفِراشِ أَكثَرَ الوَقتِ. ظَلَّت زَوجَتُهُ تَخدِمُهُ مُدّة غيابي عَنِ البَيتِ، وَقَد كَانت تَطولُ أكثَرَ الأَيَّامِ، لِأَنَّ الصَّيدَلِيَّةَ تَفتَحُ لَيلاً نَهارًا.

اتَّصَلتُ مِرارًا بِأخي طارِقٍ لِأُعلِمَهُ حَالَ أبي، وَأَنَّ رُجوعَهُ سَيُعافيهِ أو على الأقلِّ سَيُفرِحُ قَلْبَهُ المَحروقَ أَسَفًا، وَأَنَّنا جَميعًا بِحاجَةٍ إلى وجُودِهِ في البَيتِ. وَحينَ ردَّ عَليَّ

كَانَ كَلامُهُ خَناجِرَ حَادَّةً طَعَنَت صَدري وَأَدمَت قَلبي. سَخِرَ مِن مِهنَتي مُذكِّرًا إيَّايَ بِأَنَّني طَبيبُ العَائِلَةِ المَزعومُ، الَّذي لا يُشَرِّفُهُ أَن يَكونَ أَخَاه، وأَنَّني ما اتَّصلتُ بِه إلّا لِأَنَّني فَاشِلٌ في إدارةِ البَيتِ في ظِلِّ مَرَضِ أبي، وَأَنَّهُ سَيَدَعُني أَتَخَبَّطُ وَحدي في خِضَمِّ المشاكِلِ، وَسَيَظَلُّ هو في غُربَتِهِ يَعيشُ حُرًّا طَليقًا بَعيدًا عَن الهُمومِ والمصائِبِ. غَريبٌ، لَم تُغَيِّرهُ الغُربَةُ، أوتُحَنِّن قَسوةَ قَلبِهِ، وَتُلَيِّن جَفافَ طَبعِهِ. واللهِ، مَا طَلَبتُ مَجيئَهُ إلّا جَمعًا لِشَملِنا، وإنقاذًا لأَبي المَريضِ.

❊❊❊

– "ألو... غَدي، دَعْ كُلَّ شَيءٍ وتعالَ أَنجِد أُمّكَ، فَما عادَت تَنفَعُ لِشَيءٍ".

بِالكادِ فَهِمتُ قَولَها الَّذي أَرْعَشَهُ البُكاءُ، وَصَعَّبَهُ عَليَّ خَوفي أن يَكونَ قَد مَسَّها سوءٌ هِيَ أو والِدي. قَصَدْتُ البَيْتَ راكِضًا، خائِفًا، وَمُستَرجِعًا عِبارَتَها: " تعال أَنْجِدْ أُمَّكَ" مَرَّاتٍ ومَرَّاتٍ، قالت "أُمَّكَ" اليَومَ، كَلِمَةٌ غالِيةٌ عَلَيَّ ما قَالَتْها سابِقًا قَطُّ.

وَصَلْتُ إلى البَيْتِ لاهِثًا، يَختَنِقُ النَّفَسُ في صَدري، وَحينَ فَتَحتِ البابَ ارتَحتُ لِمرآها، فَهِيَ وَاقِفَةٌ عَلى قَدَمَيها، وَتَأكَّدتُ أَنَّ أبي هوَ المَقصودُ بِنَجدَتِها.

أَسرَعْتُ إلى مَرقَدِهِ، وحينَ رآني أَعلى رَأسَهُ عَنِ الوِسَادةِ، وَأشَارَ إلى إصبَعِ قَدَمِهِ وَقَد نَزَفَت وما تَزَالُ قَطراتٍ من دَمٍ شَديدِ السَّيَلانِ.

حَمَدتُ اللهَ أَلفَ مَرَّةٍ، فَقَد هَانَتِ المُصيبَةُ طَالَما أَنَّهُما بِخَيرٍ. وافَتني زَوجَتُهُ تَلومُ نَفسَها:" ما عادَ مِقَصُّ الأَظفارِ يُطاوعُني، ولا يَتَلاءَمُ مَعَ يَدَيَّ الرَّاجِفَتَيْنِ، آذيتُهُ وَهُوَ عاجِزٌ، ما عُدْتُ أَنْفَعُ لِشَيءٍ". احْتَرْتُ بِأَيِّهما أبدَأُ مُداواتي: أبالعَجوزِ النَّازِفِ المُتألِّم، أَمْ بِالمِسكينَةِ المُتَحسِّرةِ؟ قَبَّلْتُ يَدَيْها المُذنِبَتَينِ، وَسُرعانَ مَا طَلَبتُ مِنها مُساعَدَتي في إحضار المُطَهِّرِ والقُطن، وفي هذا الوقت ربَّتُّ على رَأسِ أبي وَأَسْكَنْتُ يَدَيهِ بَين يَديَّ مُطمْئِنًا. وحينَ عَادَت قُلتُ لَها:" أرأيتِ أَنَّ يَدَيكِ ما زالَتا نَافِعَتيْنِ؟ عودي إلى طَهيِكِ فَأبي بَينَ يَدَينِ أَمينَتَيْنِ".

وَرَكَعْتُ عَلى رُكبَتَيَّ أُضَمِّدُ جُرحَهُ، ويا لَهَولِ ما رَأَيْتُ! أَظفارًا يَابِسَةً يَباسَ الصَّخْرِ أُهمِلَ تَقْليمُها، فَطالَتْ واصْفَرَّتْ وَطَعَنَتْ رُؤوسَ الأَصابِعِ مُخَلِّفَةً انتِفَاخًا يَبّسَ القَدَمَ كُلَّها مَعَهُ، حَتَّى الدَّمَ في الشَّراييِنِ.

أَخْرَجتُ رِجْلَهُ الثَّانِيَة مِن تَحْتِ اللِّحافِ، وَخَلَعْتُ عَنْها جَوْرَبَها، فَبَدَتْ كَأُخْتِها تُدمي القَلْبَ. تَظَاهَرتُ بِالهُدوءِ، وَبَعْدَ أن لَفَفتُ الإِصبَعَ الجَريحَةَ، هَمَمْتُ أُقَلِّمُ أَظْفارَ القَدَمَينِ بِكَثيرٍ مِنَ الحِرصِ وَالتُّؤدَةِ. فَعَزَّتْ عَليهِ نَفسُهُ، وَأَذَلَّ العَجْزُ كِبرِيَاءَهُ، فَكَيفَ يَرضى بِأن يَركَعَ ابنُهُ الطَّبيبُ (كَمَا يُلَقِّبُني) تَحْتَ قَدَمَيهِ يُعَالِجُهُما؟ إِنَّهَا لَيْسَتْ زَلَّةَ قَدَمٍ بَلْ مَذَلَّةَ قَدَمٍ. أَبْدى تَمَنُّعًا في البِدايةِ، وَسَحَبَهُما مِنْ بَيْنِ يَديَّ، ثُمَّ رَضَخَ وَأَدَارَ وَجْهَهُ قُبَالَةَ الحائِطِ خَجَلاً مِنَ النَّظَرِ في عَيْنَيَّ. أَمَّا أَنَا، فَقَدْ حَالَ دَمْعي الغَزيرُ دونَ رُؤيَتي الواضِحَةِ لِقَدَمِهِ، لَكِنَّني جَفَّفْتُهُما خِفْيَةً وَتَابَعْتُ مَهَمَّتي الصَّعْبَة. وَكُنتُ بَيْنَ الحينِ والآخَرِ أَتَأَكَّدُ مِنْهُ أَنَّ الأَمْرَ يَجري عَلى ما يُرامُ مِنْ دونِ أَلَمٍ يُذكَرُ. وَحينَ أَنْهَيْتُ، وَجَدتُني أُقَبِّلُهُما عَفوًا، وَأَسْقي جَفَافَهُما بِسَيْلٍ مِنْ عَبَراتٍ تَنِمُّ عِن تَقصيري تِجَاهَهُ، واتِّكَالي عَلى زَوجَتِهِ في كُلِّ أُمورِهِ.

عُدْتُ وَأَدفَـأتُ بَرْدَ قَدَمَيهِ بِجَورَبيـنِ نَظيفينِ، وَغَطَّيتُهُ بِلِحَافِـهِ، فَضَمَّني مَا أَتاحَت لهُ يَداهُ بِذلـكَ، وَقَبَّلَني وَتَمْتَـمَ بِدُعاءٍ ما فَهِمَهُ مِنْهُ سِـوى رَبِّهِ، وَغَطَّ في نِومٍ عَميقٍ.

دَخَلْـتُ المَطْبَـخَ، فَوَجَدتُهَـا تَحـورُ وتَـدورُ وَتَلطِـمُ خَدَّيهـا: "البَصْلـةُ احترَقَـتْ، وَأَحْرَقَـت قَلبـي مَعَهـا. مَـا عُدْتُ أَنفَعُ لِشَـيءٍ". أَجْلَسْتُها عَلى الكُرسيِّ، وَرُحْتُ أُعِدُّ الحَسـاءَ بِنَفسـي كَمَا تَشـتَهيهِ. وَبَعد قَليلٍ، وَجَدتُهـا تَبتَلِعُ حَبَّـةَ دَواءٍ غَصَّ بِها حَلْقُها أكثَـرَ مِنْ مَرَّة، زَاعِمَةً أَنَّهـا "حَبَّةُ ضَغْـطِ الدَّمِ". أَخَـذْتُ العُلبَةَ مِـنْ يَدِهـا لِأُعيدَهـا إلـى حَقيبَـةٍ مَلأى بِالأدْويَـةِ المُبَعْثَرَةِ، فَقَـرَأتُ عَليها أَنَّها خَاصَّةٌ بِمَرَضِ السُّـكَّريِّ.

أَفْرَغْتُ الحَقيبَةَ مِن مُحتَوَيَاتِها بِهَدفِ التَّأكُّدِ مِن أَنَّها تَعْرِفُ

دَواعِي استِعمَالِ كُلِّ عُلبَةِ دواء فيها، فَوَجَدتُها تَدَّعي ذَلِكَ لَكِنَّها ما أَصَابَتْ مِنهَا إِلّا اثنَتينِ فَقَط. هَذا حَالُها مَعَ أَدوِيَتِها الخاصَّةِ، فَكَيْفَ إذا زيدَتْ إليها أَدْوِيَة أَبي؟! لُطْفَكَ يا ربُّ.

بِتُّ لِيْلَتي قَلِقًا أَتَفَقَّدُهُما طَوالَ الوَقْتِ، وآسَفُ عَلى أَنَّهُما رَبَّياني صَغيرًا لِأَبَرَّهُما في خَريفِ عُمرَيهِما، وها أَجِدُني كَبِرْتُ وانْشَغَلْتُ وَانْسَلَخْتُ عَنْهما، وَمَا عَادَ بِاستِطاعَتِي سِوى تَأمينِ خَادِمَةٍ تَرْعَاهُما بَعْدَمَا كُنْتُ أُعيبُ الأَمْرَ عَلى مَنْ يوكِلُ أَمرَ العِنَايةِ بِأَهلِهِ إلى خادِمَةٍ غَريبَةٍ.

أَحَسَّتْ عَليَّ أَدخُلُ غُرفَتَهُما مُتَفقِّدًا، فَأَشَارَت إِليَّ أَنِ اخْرُجْ، وَوَافَتْني إلى غُرفَتي. قَالَتْ: "أَنْتَ أَمَانُنا اليَومَ وَرَبُّ بَيْتِنَا، بِكَ نَقْوَى، وَبِظِلِّكَ نَحْتَمي.

أَتَدْري لِماذا سَمحتُ لِنَفْسي أَن أَكونَ أُمًّا لَك؟ اسْمَعْ، أَنْتَ لَمْ تَكُنْ لي في الماضي سِوى طِفْلٍ غَريبٍ مَفروضٍ عَليَّ في هذا البَيتِ، وَبِتَمَيُّزِكَ صِرْتَ في حَاضِري شَابًّا لافتًا نَظَري وَإِعجابي فَارِضًا اِحْتِرامَكَ، لَكِنَّني تَأَكَّدْتُ فِعلاً أَنَّكَ بِحَنانِكَ وَتَرْبِيَتِكَ وَرُجولَتِكَ سَتكونُ حَتْمًا غَدي".

❊❊❊

أسئلةُ قصَّةِ "غَدِي"

1. ما هي المشاعرُ التي انتابتْ غدي تجاهَ زوجةِ أبيه في بدايةِ القصَّةِ؟ هل تبدّلتْ في نهايتِها؟ إلى منْ منهما يعودُ الفضلُ؟ فسِّرْ.

2. أحسّ غدي بتفضيلِ إخوتِهِ عليهِ وهو صغيرٌ، اُذكرْ كيفَ تأكَّدَ منْ إحساسِهِ هذا، وهل كَانَ على حقٍّ؟ ما الدَّليلُ؟

3. لماذا كان الخوفُ يلاحق غَدِي أثناءَ مرضِهِ؟ وهل يُحسّ إخوتُه بالإحساسِ نفسِه عندما يمرضون؟ لماذا؟

4. ماذا قصد غدي بقولِهِ: "فهمْتُ الآنَ جيِّدًا أنَّ الأمَّ أطفالُها دُنياها، وكلُّ دنيا غيرَهم ليستْ دنياها"؟

5. كيف تراءى لك الوالدُ في معاملته لابنِهِ غدي في البدايةِ؟ وهلِ ارتاحَ غَدِي لهذهِ المعاملةِ؟ بيِّنْ ذلكَ.

6. علامَ يدلُّ حلْمُ غَدِي حين رأى زوجةَ والدِهِ في منامِهِ تعتذرُ منهُ؟ وعلامَ تدلّ ضمَّتُهُ لها؟

7. رغمَ كلّ التفضيلِ الذي حَظِيَ به إخوةُ غَدِي إلاّ أنَّه ظلّ يحبّهم. كيفَ تُفسِّر ذلك؟

8. هل كان لاختيارِ غَدِي تخصُّص الصيدلةِ أثرٌ في مجرى أحداثِ القصَّةِ؟ أظهرْ ذلكَ.

9. في إفصاحِ طارقٍ عن حقيقةِ يُتمِ غَدِي إفصاحٌ لشخصيّته؟ كيفَ بدا طارقٌ؟ علّلْ.

10. هلْ كانت الدّرَّاجةُ الناريَّةُ هديَّةً مناسبةً لإفراحِ غَدِي؟ لماذا هِيَ بالذَّاتِ؟

11. كيفَ تجدُ غَدِي في معاملِتِه لأخيهِ كريم؟ ما الدّروسُ الحياتيَّةُ الَّتي علَّمهُ إيَّاها؟ وهلْ قدّمها إليهِ بطريقةِ الوعظِ المباشرِ؟ لماذا برأيكَ؟

12. أينَ يظهرُ حبُّ غَدِي للعلمِ؟ وهلِ استطاعَ أن ينقلهُ إلى كريمٍ ولَارَا؟ كيفَ؟

13. ساندَ غَدِي أباهُ في الاهتمامِ بأخته لَارَا؟ بيِّنْ ذلكَ، ثمَّ أظهرْ مشاعرَ أبيهِ تجاهَ ما قامَ بهِ؟

14. هل غيَّرتِ الغربةُ طارقاً؟ ما دليلكَ؟

15. حينَ كانَ غَدِي يُداوي إصبَعَ والدِهِ الجريحةَ، فاضتْ أحاسيسُ كلٍّ منهما تجاهَ الآخرِ. كيفَ تصفُ هذهِ الأحاسيسَ؟ وهلْ أتىَ الوصفُ معبِّرًا؟ كَيفَ؟

16. أحسَّ غَدِي بعدَ مداواةِ أبيهِ وزوجتِهِ بالحسرةِ؟ ما هو مَبْعَثها؟

17. هلْ وجدتَ علاقة بين الكلمةِ الأخيرةِ في القصَّةِ وبينَ عنوانِهَا؟ اِشرَحْ مفصَّلًا.

18. في القصّة عِبَرٌ كثيرةٌ. هل ذُكِرَتْ بشكلٍ مباشرٍ؟ لماذا برأيكَ؟

19. كيفَ يُمكنُ لطفلٍ فاقدٍ حنانَ الأمّ أنْ يُغدقَ حنانًا عندما يكبرُ على مَنْ حولَهُ؟ ما السَّبب برأيكَ؟

20. تخيَّلْ في فقرةٍ مترابطةٍ خاتمة لقصّةِ غَدِي.